الخروج من النفس

للأستاذ عباس محمود العقاد

كل ناقد لا بد له من قدرة على الخروج من نفسه بعض الأحايين ، أو من قدرة على تصور الأشياء كما يتصورها مائة انسان كما يتصورها فرد واحد في جميع الحالات

وما كان « الخيال » ملكة من أنفس الملكات وأزمها للناقد الأديب والشاعر والعالم إلا لأنه يتيح للانسان أن ينظر إلى نفسه حياناً كما ينظر إلى غريب ، وأنه ينظر إلى الغرباء أحياناً كأنهم سخ أخرى منه يحس معها ويحس معه ، ويحس باللحظة عينها فوارق بين تلك الأحاسيس جميعها ، فينقد ويؤلف ويقسم ويوزع علم أن الصواب لا ينحصر في سمت واحد ولا حالة واحدة ، ن الأمر لا يكون خطأ لأنه يخالف ما استصوب ، ولا يكون يما لأنه يخالف ما استحسن ، ولا يكون بدعاً غريباً لأنه يخالف تعود ، ولكنها الحقيقة فصيلة من فصائل الجان ، تتشكل كما شكلون بمختلف الأشكال والنماذج والألوان

وبعض الأمم يبتلون بضعف الملكة الناقدة لأسباب كثيرة نها أصيل وبعضها عارض يزول

فمنها ما يؤتى من جانب الغرور عقب النصر الباهر ، وفي أيام خاء الوافر ؛ ومنها ما يؤتى من جانب الجمود والركود وطول العهد ضارة ، بين جيران من ذوي الخشونة والجلافة ؛ ومنها ما يؤتى جانب العزلة وقلة المخالطة والهجرة ؛ ومنها ما يؤتى من بلادة س وضيق العطن وشيوع الجهل والقدامة ؛ ومنها ما يؤتى من نصب الشديد الذي يؤصله في النفس طول الظلم والاضطهاد مع ة في الشكيمة وقدرة على التحول والتصرف تحول دون الأمة فناء .

وأحسب أن المصريين من أكثر الأمم سخرية بما استغربوه يتمودوه ، فلا يكون الخطيب خطيباً ولا الواعظ واعظاً ولا ثل ممثلاً إلا إذا خاطبهم باللهجة المصرية التي لا تشوبها مسحة من اللهجات العربية الأخرى ولو كانت ريفية من صميم البلاد المصرية

وأذكر أن ممثلاً سورياً كبيراً حضر إلى مصر بعد اغتراب سنوات في أوربا تتلمذ خلالها على أساطين المسرح الحديث وعاد إلى مسرحنا بنمط جديد في بعض الأدوار يند به أنداده وسابقيه ، فذهبت ومعي اثنان من الأدباء - وأقول من الأدباء لا من عامة السواد - وأصغينا إلى الرجل وهو يترقى في دوره حتى شارف القمة وألهب النفوس بالتشوف واحتداد اللهفة ، ونظرت إلى جانبي فما راعني إلا أحد الصاحبين ، وقد غلب ضحكا ، وإلا الصاحب الثاني يكاتم الضحك مكاتمة شديدة ، وكل ذلك لأن الممثل قد مط الحروف وهو يصرخ ويهيج على نحو يقارب الفرنسية من جهة ، والسورية من جهة أخرى ، فنسي الأديبان أن الانسان قد يتألم سورياً وفرنسياً وليس من الضروري أن يتألم مصرياً وقاهرياً وإلا انقلبت الخوالج الآدمية فأصبح الألم مما يضحك والهياج مما يدعو إلى الفكاهة ، وحسبا أنني لم أفطن لاختلاف اللهجة كما فطنا ... فخرجا يتندران بهذه القصة ويزهيان بالفطنة التي رزقاها وحرمتها ، والذوق « الدقيق » الذي عداني وما عداهما !

وكان عيد الحرية العثمانية فذهبنا جمعاً من الاخوان نشهد الحفل الحافل في بعض المسارح المشهورة يومذاك ، وكان بين الخطباء ترك وعرب وسوريون . فما أحسب أن رواية هزلية في ذلك المسرح أثارت قط مجانة وضحكا وسخرية كالتي أثارتها « حماسة » الخطباء والشعراء وذكريات الفجائع والمظالم في أيام الاستبداد . وكان أحد الخطباء مبيناً مفوها متدفقاً كأحسن ما يكون الخطيب في لغة من اللغات ، إلا أنه ارتضح لهجة غريبة فبطلت محاسنه واحتجبت مزاياه . ولم يكن قصارى الأمر عند أصحابنا أنه يجهل العبارات المصرية والمخارج القاهرية ، وإنما كان عندهم جاهلاً بكل شيء يجعل الخطيب خطيباً ويجعل السامعين يستمعون إليه .! فلما قلت لهم : إني أعد الرجل من أقدر من سمعت وأوفاهم بياناً ، قام أحدهم يحكيه ويردد عباراته ويمثل إشاراته وحركاته فسقطت الحجة كلها وقطعت جهيزة قول كل خطيب ! ! ... وإلا فماذا يبقى من قول القائل الذي يخالف اللهجة القاهرية هذه

المخالفة ، والذى يستطيع القاهري أن يحكيه ويتماجن عليه ؟! لا يبق بالبداهة شئ !

ويؤمن العامة إيماناً عجيباً بملازمة الأشياء لصورها وأسمائها وعاداتها التى ألفوها حتى لا يجوز أن تقع التفرقة بينها بنحو من الأنحاء

سألت أحدهم مرة : ما اسمك ؟ فأخفى اسمه الصحيح وقال لي إن اسمه « على » وهو فى الحقيقة يسمى إدريس ، وكأنه امتحن ذكائى بهذه الأكذوبة وظن أنني لا أفرق بين الكذب والصدق إذ كان الرجل الذى يسمى « إدريس » تلزمه هذه التسمية لزوماً لا فكاك منه ولا يمكن أن يسمى علياً بحال من الأحوال . ! فلما دعوته مرة أو مرتين باسم « على » وصدقت ما قال تدرج إلى غشى ومخادعتى فى غير ذلك موقناً أننى سأجهل الحق كما جهلته فى استبانة اسمه الصحيح . وأين ... نعم أين بالله على من إدريس ؟!

هذا مثل هابط جد الهبوط فى ملازمة الأشياء لظاهرها وأسمائها بحيث لا تقبل الاختلاف ولا التصور على مثال آخر ، ولكن الذين يهبطون هذا الهبوط كثيرون وإن لم يظهروا هذا الظهور . وما من ناقد ينكر كلاماً لأنه يخالف أسلوبا من الأساليب إلا وهو قريب إلى طبقة ذلك الفدم الذى يستجهل كل من يتخيل أن أسماء تطلق على الناس غير اسم إدريس !

كنا نناقش أستاذاً مدرساً فى مسألة اجتماعية فاحتج علينا برأى فيها لبعض الأئمة السابقين ، قلنا : وهل هذا الامام حجة فيما نحن فيه ؟

قال : سبحان الله ! إننا نقضى العمر نتعلم اللغة العربية ولا نحذقها كما حذقها ذلك الامام وهو طفل لم يتعلمها على معلم . أفيكون هذا حظه من الفهم ثم يجهل كلاماً نحن ندريه ؟

قلت : أو لم يخطر لك أن ذلك الامام يقضى العمر يتكلم اللغة العامية التى نحذقها نحن ولا يبلغ من حذقها ما بلغناه ؟ أو لم يخطر لك أن الطفل المولود بين الفرنسيين أو الانجليز أو الألمان يسبق ذلك الامام إلى معرفة الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية ؟ ؟ أتظن أن العربى وحده يحسن اللغة التى يتكلمها ؟ وإذا أحسنها أتظن أنه يحسن كل شيء على هذا المنوال بغير كتب وبغير معلمين ؟

فلاح عليه وأنا أساجله السؤال أنه لم يكلف بداهته قط أن تتصور للأمور أوضاعاً غير الوضع المعروض عليه . وقد تنساق أمة كاملة إلى خطأ شبيه بخطئه كما انساق العرب إلى تسمية الناس جميعاً « بالأعاجم » لأنهم لا يفهمون مايقولون

ولست أرى ميزاناً للنقد والذوق أصوب وأحكم من سؤال المرء عن عشرة شعراء أو فلاسفة يقرأ لهم ويعجب بهم ويشهد لهم بالشعر والفلسفة . فكلما اختلف هؤلاء وتباعدت بينهم أوجه الشبه وأسباب الاختيار والترجيح كان ذلك دليلا على سعة القريحة وقدرتها على الاستحسان لجملة أسباب متفرقات لا لسبب واحد متكرر محدود . وكلما تماثل هؤلاء وتقاربوا كان ذلك دليلا على ضعف النقد وعجز الملكة الموكلة بالاستحسان والانتقاء

ومن هنا نعتقد أن البارودى خطا بالنقد العربى خطوات كما خطا بالشعر فى معناه وأسلوبه . فانتقل بنا من المدرسة التى كانت تقصر الشعر على الجاهليين والمخضرمين إلى مدرسة تعرف الفضل للعباسيين والمحدثين ، وانتقل بنا مع ذلك من جماعة الزى الواحد والنمط الواحد إلى جماعة المكاثرين بالأزياء والأنماط . فقد كان الناقد قبله يستحسن البحترى ثم لا شيء بعده ولا شيء غيره ، فجاء البارودى على آثار من سبقوه يجمع بين المعري والبحتري وبين ابن الرومي وابن المعتز فى ديوان واحد

ولا تزال فى مصر بقية من المحدودين المطوين على أنفسهم يلج بهم الغرور ويشتد بهم الوهم على مقدار ما يضيق بهم المجال وينحسر بهم الذوق والشعور . فهم على يقين مابعده يقين أن « الذوق » لم يخرج من مصر ، وأن الذوق هو ما اصطنعوه من الفكاهة النثة أو الرقة المحفوظة المدبرة المتشابهة العبارات والتحيات والمصطلحات ، أو الجناسات الكلامية والفكرية التى لا تطلع على الذهن بلمعة من نور ، ولا تترك فيه فسلة من فهم ، ولا تبعث فيه حركة من حياة . وتسألهم : كم عدد الشعراء الفحول فى عشرة آلاف سنة بين القوم الذين رزقوا الذوق كله والاحساس كله ولم يتركوا على زعمهم بقية منهما إلا كما يترك النسور في الاناء المهجور ؟ ؟ وكم واحداً من « أبناء البلد » الذين لا ذوق إلا ذوقهم ، ولا إحساس إلا

ساسهم ، ولا فكاهة إلا فكاهتهم ، ولا فطنة إلا فطنتهم ، صعد فى مراتب الفن والشعر إلى مواطئ أقدام المحرومين اكين ، الذين لا يشعرون ولا يتذوقون ، ولا يستمرئون لافة ولا يستملحون المعانى والنكات ؟؟ وإذا كان ما استقروا ، هو غاية الحس والذوق ، ومحامدى الابداع والاحسان ، وقصارى افة والجمال ، فما بالهم لم ينجبوا رجلا واحداً خلاقا فى عالم الشعر الكتابة أو التصوير أو الموسيقى ، وقد أنجبت الأمم المئات لوف ؟

سيمضى زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء الذوق ا أنهم صفر من الذوق ، وأن الله لم يخلق على الأرض طائفة ظ منهم حساً ، وأثقل منهم روحاً ، وأفرغ منهم لباً ، وأعضل م داء على العلاج

وسيمضى زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء النقد عندنا الذوق الذي يستحسن حسناً جميل ، وأجل منه الذوق الذي حسن الحسنين ، وأجل منهما الذوق الذى يستحسن الشيئين ما تناقض فى الحسن كأنهما ضدان

وسيمضى زمن نرجو ألا يطول قبل أن يشيع بيننا أن كل قد يشتهي طعاماً لذيذاً ولا يمنع ذلك أن تشتمل الأطعمة الف لون لذيذ غيره ، وأنه إذا جاز هذا فى الآكال التى تعد مر فأخلق أن يجوز فيما ليس له آخر ، وهو أطعمة الألباب ناف المعانى وألوان الشعور

ونرجو ألا يطول الزمن قبل أن يتعلم العازلون الماجنون كيف جون من نفوسهم ليعرفوها ويعرفوا سواها ، كما يخرج السائح وطنه ليعرف وطنه ، ويخرج القارئ من زمنه ليعرف زمنه ، د المصور من صورته ليراها حق الرؤية ويبلغ بها جهده من رية والتجويد

وتلك نقلة صعبة على من يحتاج إليها . ففى عالم المادة أكثر ن انطلاقا إلى الخروج المحبوسون فى المكان المغلق المحدود . عالم الفكر والروح فالمحبوسون فى المكان المغلق المحدود هم الناس انطلاقا إلى الخروج وأكثرهم قناعة بما هم فيه .

عباس محمود العقاد

المحاكمات التاريخية الكبرى

١ـ الحركة النهليستية
ومصرع القيصر اسكندر الثانى

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الثورة البلشفية نتيجة محزنة للمعركة التحريرية الرائعة التى اضطرمت مدى ستين عاماً بين القياصرة وبين الحركة الثورية الروسية . ولم يثل عرش القياصرة ويسحق طغيان القيصرية وتمحى نظم الاقطاع وامتيازات النبلاء إلا ليقوم مكانها طغيان جديد أشد إمعاناً فى الارهاب والسفك وثل الحقوق والحريات العامة . ومن ذا الذي يستطيع أن يقول إن الشعب الروسى يتمتع اليوم فى ظل النظم البلشفية بلمحة من الحرية التى كان ينشدها فى أيام القياصرة والتى اعتقد أنه ظفر بها كاملة في ثورة مارس سنة ١٩١٧ الاشتراكية ثم فى ثورة اكتوبر البلشفية . كانت روسيا منذ منتصف القرن التاسع عشر مسرح نضال عنيف بين طغيان القيصرية وبين العقلية الروسية الجديدة الطموح إلى الاصلاح والتحرير ؛ وكانت روسيا الجديدة تنشد الاصلاح السلمى بادىء بدء وتحاول عن طريق الاصلاحات الدستورية والاجتماعية تحطيم الأصفاد المرهقة التي تطوق القيصرية بها عنق الشعب الروسى ؛ وكان رسل روسيا الجديدة يومئذ جمهرة من الشباب المستنير الذى حفزته مؤثرات الثقافة الحرة إلى التطلع إلى آفاق جديدة . كان هؤلاء هم طلائع «النهلزم» أو الحركة النهلستية كما سماها ترجنيف ، وكانت هذه الدعوة الاصلاحية المتوثبة دعوة مثل ومبادىء يذكيها طائفة من الكتاب الأحرار بأقلامهم الملتهبة ؛ وكان أخص ما يميز الدعوة الحديثة على قول ستبنياك مؤرخ الثورة الروسية « هو إنكار كل ما يفرض على الفرد إنكاراً مطلقاً تمزقه الحرية الفردية . وقد كانت النهلستية ثورة قوية مضطرمة لا على الطغيان السياسى ولكن على الطغيان المعنوي الذى يرهق حياة الفرد الخاصة » . على أن هذه الحركة الاصلاحية السلمية لم تلبث إزاء